النهضة الفكرية في المجتمع العراقي في القرن 19 / واثر الحضارة الغربية فيها

طالب خليف السلطاني
كلية التربية الأساسية

المقدمة

لقد بدا الشرق يتأثر بالحضارة الغربية في نهاية القرن الثامن عشر وظن بعض الباحثين إن البحوث والترجمة والصحافة والتعليم ودخول الأنواع الأدبية الحديثة هي أسباب وعوامل لازدهار النهضة الفكرية. والحق إن الصحافة والترجمة وما اليهما لم تكن أسبابا وعواملا للنهضة ، وإنما هي نتائج لها .[1]

ويمكن إن نذكر سببين لهذه النهضة او اليقظة من الأسباب التي أدت إلى إصدار الصحافة والترجمة وتأسيس المدارس وهما:

1. غريزة المحاكاة أو حبها : فالمجتمعات البدائية أو القديمة تحاكي المجتمعات المتحضرة أو المتقدمة وتحاول إن ترسم صورتها على صورة هذه المجتمعات المتمدنه أو المتحضرة ، وهي بذلك تشبه الطفل عندما يحاكي أو يقلد الكبار .[2]
2. المقارنة بين الواقع الغربي والواقع الشرقي من حيث طبيعة المجتمع وتمتع الفرد بالحرية والحقوق التي تكفلها المجتمعات الغربية لشعوبها مقارنة بما كان يسود في المجتمع في ظل الإمبراطورية العثمانية ، وعدم تمتع الفرد بالحقوق والحرية ، وهذا الواقع جعل أبناء المجتمع ينظرون إلى التناقض الموجود في الواقع الغربي والازدهار الحضاري بسبب حرية الفرد ووجود دستور ينظم العلاقة بين الحاكم والمحكوم. ولقد كان لهذا الواقع المؤلم والظلم في المجتمع الشرقي في القرن التاسع عشر منفعة، حيث جعلهم ينظرون إلى الواقع الغربي ليقارنوا بين الواقعين الغربي والشرقي ، بينما صنع غياب الدستور من تجاوز على حرية الفرد وحق المواطن في إن يختار من يحكمه . وبهذا فقد دعا (مصطفى فاضل باشا) في رسالة مفتوحة أرسلها إلى السلطان عبد العزيز سنة 1866م من منفاه في باريس إلى الحرية وجاء فيها : " خلت بلادك من رائ عام ، فأصبح عمالك غير مسؤولين أمام رعيتك ومعناه أنهم أمسوا غير مسؤولين امام عرشك ..." [3] ثم يقول : " وصار الناس طائفتين : حاكما يظلم لا من يردع ومحكوما يظلم ولا من يشفع : "[4].... فهو يدعوا الى الحرية مقارنة بما في المجتمع الغربي .

ولذلك يمكن القول ان قيام الترجمة ونشوء الصحافة وتقليد الأنواع الأدبية الحديثة كان نتيجة لهذا السبب لأنها تودي إلى المطالبة بالحرية وتفتح الأذهان إليها ، كما إن إنشاء المدارس وإرسال البحوث كان بسبب الرغبة في المحاكاة ، وبهذا نرى إن بعض الباحثين قد وضعوا النتائج التي تنتج عن هذه العوامل والأسباب مكان أسبابها ، وكان لهذه النتائج اثر في تقدم المجتمع ونهضته بسبب التأثر بالحضارة الغربية فقد كان لهذه النتائج جذور وأصول منها :

1. التعليم : لاشك في إن مناهج التعليم في العراق قد تأثرت بالمناهج التركية أو العربية التي اتصلت بالغرب قبل نشأة التعليم الحديث في العراق . فقد كان التعليم في العراق عام 1899م بمستوى الدراسة

(1) من امير الى سلطان : احمد فتحي زغلول باشا ، المطبعة الرحمانية ، القاهرة ، 1922م،ص11
(2) المصدر السابق : ص12.
(3) المصدر السابق : ص12.
(4) م . ن: ص12.

المتوسطة ، ولم يكن في العراق الا عشرون مدرسة (متوسطة) وعدد طلابها جميعا أكثر من (800) طالب ، وكانت مفردات المناهج في هذه المدارس تدرس باللغة التركية .[5]

وبذلك يمكن القول ان شيئا من الفكر العلمي قد بدا ينتشر في المجتمع العراقي الحديث في القرن التاسع عشر ، ذلك ان المدارس المتوسطة أنشأت في زمن مدحت باشا .[6] وفي زمن الوالي رديف باشا نشأت الدراسة الإعدادية عام 1873م .[7]

2. البعثات العلمية : لقد أرسلت بعثات علمية إلى الغرب في عام 1809م ، وعام 1813م ،1836م، وكانت هذه البعثات إلى دول مختلفة ومتعددة منها ايطاليا وروما لأغراض علمية ..[8] ، وكان ذلك مطلع القرن / 19 في عهد محمد علي وكان من نتيجة هذه البعثات نشوء مدرسة (الألسن) عام 1883م لغرض ترجمة علوم الغرب .[9]
3. الترجمة : إن الترجمة في بادئ الأمر اهتمت بالكتب العلمية والعسكرية فقد ترجم في مصر أكثر من (270)كتابا في العلوم الطبية والرياضيات والحرب عام 1853م ولكن ذلك لا يعني عدم وجود ترجمة الكتب الأدبية ذلك إن الكثير من الكتب الأدبية والقصصية والتاريخية الفرنسية قد جلبت الى مصر للإطلاع عليها في مدرسة الألسن التي أنشأت عام 1883م .[10]

لقد ساعدت الصحافة قراءها وترجمة لهم الكثير مثل مجلة المقتطف ، كذلك قام المثقفون بترجمة الأدب القصصي الاوربي والادب المسرحي .[11] ، ففي عام 1936م قام امين دار الكتب في بيروت بجمع معجما لها اثبت فيه نحو عشره ألاف قصة مترجمة من مختلف اللغات .[12]

ولكن مما يؤاخذ على الترجمة انها لم تكن منظمة فان ملحمة دانتي (الكوميديا الإلهية) مثلا لم يترجم قسمها الأول الا عام 1926م فقد ترجم (عبود ابو راشد) الجزء الاول (الجحيم) ثم ترجم الجزء الثاني (المطهر)عام 1931م والثالث(النعيم) سنة 1932م ولم تقدم الترجمة الاهم على المهم.[13]

اما في العراق فكانت الترجمة من نصيب المبشرين المسحيين الذين درسوا اللغات الاجنبية ، فقد ترجمت مسرحيات كثيرة منها مسرحية (الطيب رغما عنه) . 1910م ترجمها القس جرجيس قندلا.[14]، واما (نعوم فتح الله سحار)من اصل فرنسي فقد ترجم (لطيف وخوشابا)عام 1893م و(الامير الاسير)عام 1895م.[15]

4. الصحافة الادبية والعلمية :ان الصحافة قد بدات في مصر وسوريا ولبنان قبل ان تبدا في العراق وقد انتشرت الصحف وزاد تاثيرها نتيجة لعدم وجود حواجز بين بلد واخر ، ومن هذه الصحف التي ساعدت على نقل الافكار من خلال نشر قصص وروايات (البشير) عام 1870م للاباء اليسوعيين

(5) تاريخ التعليم في العراق في العهد العثماني (1638-1917): عبد الرزاق الهلالي ، بغداد ،ط1، 1959م/ص152-153-159.
(6) م.ن: ص149-150.
(7) م.ن: ص156-157.
(8) تاريخ الترجمة والحركة الثقافية في عصر محمد علي : د. جمال الدين الشيال ، دار الفكر العربي ، مطبعة الاعتماد ، مصر ، 1951م.ص12.
(9) م.ن: ص39.
(10) تاريخ الترجمة والحركة الثقافية في عصر محمد علي : د. جمال الدين الشيال ، دار الفكر العربي ، مطبعة الاعتماد ، مصر ، 1951م.ص1- 54 / ملاحق.
(11) الاتجاهات الادبية في العالم العربي الحديث : انيس المقدسي ، بيروت (ط1) 1977م ، ص370.
(12) م .ن : ص371.
(13) م .ن : ص376.
(14) الفن القصصي في الادب العربي الحديث : عمر الطالب ، ج1، نجف ، 1971م،ص45.
(15) م . ن: ص45.

و(الجنان)لبطرس البستاني عام 1879 و(المشرق)للاباء اليسوعيين 1898م و(المقتطف)1887م وبـذلك فقد تاخرت الصحافة في العراق عنها في البلاد العربية بالرغم من ان تاريخ الصحافة في العـراق بـدا بصدور جريدة الزوراء في بغداد عام 1869م اصدرها الوالي مدحت باشا ولكنها توقفت عن الصـدور عند الاحتلال الانكليزي بغداد 1917م.

ان مجلة المقتطف تعد اهم مجلة ساعدت على نقل الفكر العلمي الى جانب النتاج الادبي فقد انشأت فـي اول امرها عام 1876م في بيروت ثم انتقلت الى مصر في سنتها التاسعة وتعد حلقة مهمة للاتصال بين الفكر الغربي والفكر الشرقي .[16]. معتمدة على دخول المطبعة الاميرية التي انشاها محمد علي عـام 1822م في مصر والتي ساعدت على نشر التراث العربي القديم. [17]

5. الانواع الادبية :

أ. القصة والرواية : كانت لبنان الموطن الاول للقصة العربية الحديثة وكان اول نتاج للقصة الحديثـة في العربية هي للقاص (سليم بطرس البستاني) في مجلة (الجنائن)بين سـنة 1870م ووفاتـه عـام 1884م.[18]

وفي العراق قلدت الصحافة العراقية الصحافة العربية في تقديم الانـواع الادبيـة المترجمـة او الموضوعة التي تميزت بانها اقرب الى المقالة الاجتماعية او السياسية . وبذلك قام الشاعر (معروف عبد الغني الرصافي) بترجمة قصة (الرؤيا)للشاعر التركي (نامق كمال) عام 1909م. ثم نشـرت مجلة الرقيب رواية (ذات القناع الاخر) في عام 1909م ونشرت مجلة لغة العرب قصـة (ينبـوع الشفاء)في عام 1911م وهي من تاليف (ميرمية) واطلق عليها الكرملي اسم الاحدوثة كمـا نشـرت قصة (مريم)عام 1912م.[19]

ويمكن القول ان المجلات والكتب الشهرية قد ظهرت لنشر الروايات في البلاد العربية منذ عام 1894م .([20]) ولقد اجمع الباحثون العراقيون على اهمية الصحافة في نشاة الفن القصصي في الادب العربي او العراقي .[21]

ب. المسرحية يعد (مارون نقاش) اول من حاول ان يدخل المسرح الى العالم العربي (1817–1855م) وكانت اولى مسرحياته (البخيل) 1847م وقد بلغ عدد المسرحيات المعربة والمترجمة والمقتبسة بين عامي 1847و1914م حوالي اربعمائه مسرحية .[22] وقد تاثرت الحركة المسرحية بما استجد فـي المسرح الاوربي من معطيات جديده خرجت عن المبدا الكلاسـيكي والرومانسـي ، ولقـد كانـت الترجمة عن المسرح الفرنسي قد سبقت الترجمة عن المسرح الانكليزي وذلك يعود الى صلة مصر ولبنان بفرنسا ثقافيا .[23]

ان تاريخ ترجمة بعض المسرحيات الى العربية في العراق يعود الى العـام 1893م امـا اول مسرحية عراقية موضوعية فهي كوميديا (ادم وحواء) للقس حنا حبش المتوفي سنة (1882)اذ انتهى

(16) الاتجاهات الادبية :ص370. وانظر : تاريخ الفكر العربي في نشوئه وتطوره بالترجمة والنقل عن الحضارة اليونانية ومقالات اخرى : اسماعيل مظهر 1958م، ص16.
(17) تطور الشعر العربي الحديث في مصر : د. ماهر حسن فهمي ، القاهرة ، 1958م، ص16.
(18) الفن القصصي 38/1.
(19) القصة القصيرة الحديثة في العراتق ، ص18-20.
(20) الفن القصصي :ص42. وانظر : القصة في الادب العربي الحديث : د. محمد يوسف نجم ، بيروت ، 1956م ، ص3-13.
(21) نشات القصة وتطورها في العراق ،(1908/ 1939): د. عبد الاله احمد ، بغداد ،1969م، ص20-21-25.
(22) المسرحية في الادب العربي : ص31-33.
(23) النقد المقارن والدراسات النقدية : داود سلوم ، الموصل ، 1976م، ص14. وانظر : الفن القصصي ،ص46.

منها عام 1880م. ولا يفوتنا القول ان الترجمة قد ابتدات في اول الامر عن اللغة التركية لان المتعلمين العراقيين كانوا محيطين بها بحكم الدراسة والوظيفة وهذا ماذكره محمود احمد السيد في (مقال له بجريدة الاستقلال العراقية) العدد 1095 عام 1927م اذ كان عنوان المقال (نزعة من نزعات الادب القصصي التركي هدم للتقاليد البالية)[24].

ان الاديب نعوم فتح الله سحار (ت 1900م)وحنا رسام (ت 1958م) رائد المسرح العراقي كما يقول عمر الطالب وتعد مسرحية (لطيف وخوشابا) المعربة اول مسرحية عراقية لها اهمية فنيه .[25].

ج- الشعر : لقد مر الشعر العربي القديم بمراحل وادوار مختلفة ومتباينة ، وانتقل من البداوة الى الحضارة وقد اصابته فترات نمو ونضوج ثم فترة خمول وذبول . وان الشعر العربي الحديث هو وريث الشعر العربي القديم ، وحين نصل الى العصر الحديث فاننا نرى ان الموروث الادبي يتاثر بالافكار التي وصلت الينا من اوربا فمن محاولة محمود سامي البارودي لبعث الشعر العربي القديم الى الشعر العربي الحديث الى محاولة احمد شوقي وحافظ ابراهيم للمحافظة على الشعر القديم ثم الى مدرسة المجددين في المضامين ومنهم مطران خليل مطران والى مدرسة عباس محمود العقاد والمازني وشكري ثم الى مدرسة ابولو ومن شعرائها احمد زكي ابو شادي وابراهيم ناجي وعلي محمود طة المهندس وحسين كامل وصالح جودة .[26]

اما في العراق فقد ظهر الشعر العراقي الحديث على يد الرصافي والزهاوي والكاظمي متزامنا مع مدرسة شوقي وحافظ . وبهذا فقد كان هناك محاولات لتطوير الشعر العربي وهذا واضح من خلال نتائج الشعراء والادباء ومنها في عام 1866م قامت اول دعوة لتطوير الشعر العربي الحديث هي دعوة (رزق الله حسون) الذي ترجم (سفر ايوب)على طريقة الشعر المرسل والتخلص من القافية.[27]

وفي عام 1909م صدر ديوان (الكلم المنظوم) للشاعر جميل صدقي الزهاوي و(اضواء الفجر)لعبد الرحمن شكري وقد قال العقاد عن ديوان شكري انه "فاتحة الصراع بينه وبين المذهب القديم مذهب شوقي وحافظ".[28]

في مثل هذه البيئة التي بدات تتاثر بالغرب منذو القرن التاسع عشر ونفذت اليها العلوم والاداب والانواع الادبية الجديدة ولد الشعراء ونشاوا وترعرعوا من خلال المفاهيم في للعصر الجديد ، ومنهم الرصافي والزهاوي ولقد سجل الباحثون العراقيون هذا التطر في العراق واشاروا الى بعض الظواهر الادبية التي نتجت عن اليقظة الفكرية وان كان عامتهم قد جعلوا هذه النتائج عوامل واسبابا لهذه النهضة او اليقظة الفكرية .

خلاصة اليقظة الفكرية في المجتمع العراقي في القرن التاسع عشر كانت نتيجة للاتصال بالحضارة الغربية فقد حصل تاثر كبير بالمذاهب الادبية الغربية كان من نتيجته ان اثر على الفكر في المجتمع العربي عامة والعراق بخاصة وكان الاتي :

---

(24) القصة القصيرة الحديثة في العراق : ص12.
(25) الفن القصصي : ج2،ص5.
(26) الحوار الادبي حول الشعر : د. محمد ابو الانوار ، مكتبة الشباب ، القاهرة ، 1975م، ص653،501.
(27) م . ن: ص623.
(28)الحوار الادبي حول الشعر :ذص115.

تأثرت الأنواع الأدبية كالمسرحية والقصة والشعر بالأنواع الأدبية الحديثة في الغـــرب وراح الأدباء يحاكون الأوربيون في ذلك فجاء هذا التأثر عن طريق مصر ولبنان أولا .

ولقد اتضحت مظاهر هذه التغييرات التي تدل على وجود نهضة فكرية بظهور فنون جديـــدة في الشعر والنثر كما ان اليقظة الفكرية كانت نتيجة لصراع حدث بين القديم والجديد وكانت النتيجة اخيرا لصالح الجديد فكان الوعي الفكري واليقظة الفكرية .

ويمكن القول ان لهذا الاتصال بالغرب ومحاكاة آدابهم الحديثة سلبيات وايجابيات فمن سلبياته الاندفاع نحو التقليد والمحاكاة من غير هدف ولا وضوح في الرؤية.

اما المردودات الحسنة والايجابية فهي ظهور اليقظة الفكرية والوعي والنهضة الامر الذي ادى بدوره الى ظهور أنواع أدبية جديدة في الرواية والقصة والمسرح والنقد ، ولقد تاثر بعض الشعراء بهذا الواقع وبالحضارة الغربية نتيجة الاتصال بالغرب ومن بين الشعراء الذين تـــاثروا بالحضـــارة الغربية فظهر ذلك واضحا في شعر (الزهاوي) فكان الاثر الادبي الغربي العلمي والاجتماعي فـــي ادب هذا الشاعر موجودا ويعزو بعض الباحثين ان سبب اليقظة الفكرية هو المقاربة بـــين الواقـــع الشرقي والواقع الغربي ثم غريزة المحاكاة في المجتمعات .[29]،في الوقت الذي كان فيه المجتمـــع العربي والعراقي خاصة بحاجة الى مثل هذه اليقظة والوعي الفكري.

ملخص البحث :

لقد بدا الشرق يتاثر بالحضارة الغربية في نهاية القرن الثامن عشر ، وظـــن بعـــض البـــاحثين ان البحوث والترجمة والصحافة والتعليم ودخول الانواع الادبية الحديثة هي اسباب وعوامل لازدهار النهضـــة الفكرية ، والصحيح ان الصحافة والترجمة كانت نتائج للنهضة الفكرية ولم تكن اسبابا لها وبذلك نســـتطيع ذكر سببين من الاسباب التي ادت الى اصدار الصحافة والترجمة وتاسيس المدارس وهما :-

1. غريزة المحاكاة ، اذ ان المجتمعات القديمة تحاكي المجتمعات المتحضرة او المتقدمة .
2. المقارنة بين الواقع الشرقي والواقع الغربي من حيث طبيعة المجتمع وتمتع الفرد بالحرية في ظل الحكم العثماني ، فصار الناس صنفين حاكم ومحكوم وكان من نتائج الاثر الغربي في الحضارة ما يلي :- أ. التعليم . ب. البعثات العلمية . جـــ . الترجمة. د. الصحافة الادبية والعلمية . هـــ .الانواع الادبية (القصة والمسرحية والشعر).

ولقد اتضحت مظاهر هذه التغييرات التي تدل على وجود نهضة فكرية بظهور فنون جديدة من الشعر والنثر نتيجة التاثر بالحضارة الغربية كما عند اللشاعر جميل صدقي الزهاوي.

المصادر والمراجع

1.الاتجاهات الادبية في العالم العربي الحديث : انيس المقدسي ، بيروت ، ط1، 1977م.

2.تاريخ التعليم في العراق الى العهد العثماني (1638-1917) : عبد الرزاق الهلالي ، بغـــداد ، ط1 ، 1959م.

3.تاريخ الترجمة والحركة الثقافية في عصر محمد علي : د. جمال الدين الشيال ، دار الفكر العربـــي ، مطبعة الاعتماد ، مصر ، 1951م.

(29) في الادب الحديث :د. عمر الدسوقي ،ج2، دار الكتاب العربي ، بيروت ، 1966م، ص54فما بعد .

4.تاريخ الفكر العربي في نشوئه وتطوره ، بالترجمة والنقل عن الحضارة اليونانية ومقـــالات اخـــرى : اسماعيل مظهر ، 1928م.
5.تطور الشعر العربي الحديث في مصر : د. ماهر حسن فهمي ، القاهرة ، 1958م.
6.الحوار الادبي حول الشعر : د. محمد ابو الانوار ، مكتبة الشباب ، القاهرة ، 1975م.
7.الفن القصصي في الادب العربي الحديث : عمر الطالب ، ج1ج2 ، النجف ، 1971م.
8.في الادب الحديث : د. عمر الدسوقي ، دار الكتاب العربي ، بيروت ، 1966م.
9.القصة في الادب العربي الحديث : د. محمد يوسف نجم ، بيروت ، 1956م.
10. من امير الى سلطان : احمد فتحي زغلول باشا ، المطبعة الرحمانية ، القاهرة ، 1922م.
11. النقد المقارن والدراسات النقدية : د. داود سلوم ، الموصل ، 1976م.
12. نشاة القصة وتطورها في العراق (1908 – 1939) : د. عبد الاله احمد ، بغداد ، 1969م.